المقتطف

الجزء الحادي عشر من المجلد الثالث والثلاثين

١ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٠٨ — الموافق ٧ شوال سنة ١٣٢٦

دولة آل عثمان

سألنا غير واحد من قرّاء المقتطف ان ننشر لهم تاريخًا مختصرًا لدولة آل عثمان نلمّ فيه بالامور الرئيسة في تاريخهم من حين منشإهم الى الآن مما يمكن ادماجهُ في مقالة او بضع مقالات فرأينا ان اجابة طلبهم قد صارت الآن في حيز الامكان بعد ان استتبّت الحريّة للمطبوعات في الممالك العثمانيّة وسنقتصر على ذكر الاخبار والحوادث بعد تمحيصها معتمدين على بعض التواريخ الموثوق بها

لما ضعف شأن الممالك الاسلامية في اواسط القرن الثالث عشر قبل قيام صلاح الدين الايوبي وجعلت قبائل التركمان تهاجر من تركستان غربًا هربًا من وجه المغول وطمعًا بالاستيلاء على ما ضعف شأنهُ من بلاد الاتراك السلاجقة هاجر امير من امرائهم اسمهُ سليمان شاه ومعهُ نحو خمسين الفًا من التركمان وكان ذلك حوالي سنة ١٢٣٤ للميلاد او ٦٣١ للهجرة فوصل الى حلب بطريق اذربيجان ثم اراد العودة الى بلادهِ فغرق في الفرات ودفن في جوار قلعة جعبر ويسمّى المكان الذي دفن فيه ترك مزاري اي مزار الترك فرجع اثنان من اولادهِ الى بلادهم بكثير من رجالهِ وكان لهُ ولد آخر اسمهُ ارطغرل فسار باربع مئة فارس من عشيرتهِ الى جهة الاناضول ويقال انهُ رأى في طريقهِ جنود السلطان علاء الدين السلجوقي صاحب قونية تقاتل التتار فانضمّ اليهم وقاتل معهم فانهزم التتار من وجههم فسرّ السلطان علاء الدين بهِ واقطعهُ بلادًا خصيبة على تخوم بلاد الروم وهناك ولد لهُ ولدهُ عثمان او عثمان الذي سميت منهُ الدولة العثمانية والامة العثمانيّة وكانت ولادتهُ سنة ١٢٥٨

وتوفي ارطغرل سنة ١٢٨١ وخلفهُ ولدهُ عثمان فحارب الروم واخذ منهم بلادًا كثيرة

فسرّ به سلطان السلاجقة وارسل اليه لواء ابيض اعلاماً بامارته ولقبهُ عثمان الغازي

وانقرضت الدولة السلجوقية في اول القرن الرابع عشر فانقسمت بلادها الى عشر امارات وكانت امارة عثمان واحدة منها فاستقلَّ فيها وضرب السكة باسمهِ وتابع الغارات على حدود مملكة الروم واستولى على برصى ونيقوميدية ونيقية . وخلفهُ ابنهُ أُرخان الغازي سنة ١٣٢٦ وجعل برصى عاصمة مملكتهِ وقلَّد اخاهُ علاء الدين باشا منصب الوزارة وارسل ولدهُ الاكبر سليمان باشا الى الروملي فاستولى على غاليبولي وأُطلق على رجالهِ اسم العثمانيين نسبة الى والدهِ عثمان الاول . والسلطان ارخان هو اول مَن نظم مملكة آل عثمان في غربي اسيا واقطع قواد جيشهِ الاقطاعات . وقسم بلادهُ اولاً الى سنجقين ثم الى ثلاثة لكي يعيِّ كل سنجق جيشاً للذود عن البلاد

وانتصر ارطغرل وعثمان الاول على استخدام فرسان الاتراك وكانا يجمعان المشاة وقت الحاجة اليهم لاجل الحصار ومناوشة الاعداء ثم يصرفانهم وقت الاستغناء عنهم فرأى السلطان ارخان ان ذلك غير وافٍ بالغرض فنظم جيوش المشاة او البيادة وقطع لهم الرواتب وقسمهم الى عشرات ومئات والوفٍ جارياً في ذلك مجرى الروم في تنظيم جنودهم وكانوا اولاً من اولاد الاتراك ثم ابدلهم باولاد الروم بمشورة الوزير قره خليل لكي لا يكون لهم عصبيَّة لكثرة عددهم حالاً لان النصارى رأوا ان لا ناصر لهم من ملوك الروم وكانوا يكرهون اللاتين فاختاروا خدمة الاتراك وجعل ابناؤهم يتطوعون للخدمة في الجيش العثماني من تلقاء انفسهم او باشارة والديهم . واليسهم الحاج بكطاش واضع الطريقة البكطاشية قبعات من الجلد وسماهم بالانكشارية وهي بالتركية يكي چاري اي الجيش الجديد

ونظم السلطان ارخان فرقاً من الفرسان اضافهم الى الانكشاريَّة وقسموا اولاً الى قسمين الصباحية او الفرسان والسحدارية او المناوشة وهم ايضاً من اولاد النصارى واسراهم . ولم يكن السلطان ارخان اكبر اولاد السلطان عثمان بل كان اخوهُ علاء الدين اكبر منهُ لكن علاء الدين كان من رجال العلم فلا يصلح لامتشاق الحسام وتوسيع نطاق الملك فاخيهِ ارخان ولذلك اوصى عثمان بالملك لارخان وبتدبير لعلاء الدين بجعلهُ وزيراً لاخيهِ وبذلك ابطل نظام الوراثة للبكر من الاولاد

ولما كان نجم الدولة العثمانية آخذاً في الاشراق وعلمها في الانتشار كان الصقالبة قد اخذوا في الاعتداء على حدود مملكة الروم من جهة الشرق واستولى ملك الصرب على شبه جزيرة البلقان وجعل همهُ حماية البلغور من آل عثمان فاستعان ملك الروم بالعثمانيين

عليهِ فغلبوا السرب سنة ١٣٥٣ وخرج رؤساء السرب والالبانيين على ملك الروم فاستعان بالسلطان ارخان سنة ١٣٥٦ فارسل ابنهُ سليمان لنجدتهِ فعبر البحر على الارمات بثمانين من جنودهِ وامر بعض الزوارق وعبر بها جيشهُ واستولى على غاليبولي في السنة التالية كما تقدم وكان ذلك بداءة فتح العثمانيين في اوربا فافتداها الامبراطور يوحنا السادس بابنتهِ اعطاها زوجةً لارخان ومات الامير سليمان في زمن ابيهِ ودفن في ساحل اوربا مخلفهُ في ولاية العهد اخوهُ مراد وتوفي السلطان ارخان سنة ١٣٦٠ ودفن في مدينة برصى

وزار الشيخ شرف الدين ابن بطوطة الرحالة المشهورة مدينة برصى في عهد السلطان ارخان ووصف ممالك الاتراك واحوالهم المعاشية وسنذكر في ايرادهِ اكبر فائدة للباحثين في تاريخ المملكة العثمانية قال في وصف السلطان ارخان "هو السلطان اختيار الدين ارخان بك ابن السلطان عثمان جوق ولقبهُ بالتركية الصغير . وهذا السلطان اكبر ملوك التركمان واكثرهم مالاً وبلاداً وعسكراً لهُ من الحصون ما يقارب مئة حصن وهو في اكثر اوقاتهِ لا يزال يطوف عليها ويقيم بكل حصن منها اياماً لاصلاح شؤونهِ وتفقد حالهِ ويقال انهُ لم يقم قط شهراً كاملاً ببلد ويقاتل الكفار ويحاصرهم ووالدهُ هو الذي استفتح مدينة برصى من ايدي الروم ووقفهُ بمسجدها وكان مسجدها كنيسة للنصارى ويقال انهُ حاصر مدينة يزنيك نحو عشرين سنة ومات قبل فتحها فحاصرها ولدهُ هذا الذي ذكرناهُ اثنتي عشرة سنة وافتتحها وبها كان لقائي لهُ وبعث اليَّ بدراهم كثيرة"

وفي رحلة ابن بطوطة امور كثيرة نشير اليها استطراداً لعلاقتها بتاريخ آل عثمان من ذلك انهُ كان ينزل غالباً في زوايا الاخية وهو مرتحل في تلك البلاد وهم دراويش كالوهبان يكرمون الضيف ويقومون على خدمتهِ . قال في كلامهِ على مدينة بولي "ودخلنا المدينة فقصدنا زاوية احد الفتيان الاخية ومن عوائدهم انهم لا تزال النار موقدة في زواياهم ايام الشتاء ابداً يجعلون في كل ركن من اركان الزاوية موقداً للنار ويضعون لها مدافن يصعد منها الدخان ولا يؤذي الزاوية ويسمونها البخاري واحدها بخيري . قال ابن جزي وقد احسن صفي الدين ابن العزيز بن سرايا الحلي في قولهِ في الثورية وتذكرتهِ بذكر البخيري

ان البخيري مذ فارقتهُ خدا يحثو الرماد على كانونهِ التربِ
لو شئتمُ انهُ يسمي ابا لهبٍ جاءت بفالكم حمالة الحطبِ

فلما دخلنا الزاوية وجدنا النار موقدة فنزعت ثيابي ولبست ثياباً سواها واصطليت بالنار

واتى الاخي بالطعام والفاكهة واكثر من ذلك فللهِ درهم من طائفة ما اكرم نفوسهم واشد ايثارهم واعظم شفقتهم على الغريب واكرامهم بالوارد واحبهم فيهِ واجملهم احتفالاً بامرهِ فليس قدوم الانسان الغريب عليهم الاَّ كقدومهِ على احب اهلهِ اليهِ . وبتنا تلك الليلة بحالة رضية ثم رحلنا بالغداة فوصلنا الى مدينة كردي بولي وهي مدينة كبيرة في بسيط من الارض حسنة متسعة الشوارع والاسواق من اشد البلاد برداً وهي محلاَّت متفرقة كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم وسلطانها السلطان شاه بك من متوسطي سلاطين هذه البلاد حسن الصورة والسيرة جميل الخلق قليل العطاء . صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ونزلنا بزاوية منها والقيت بها الخطيب الفقيه شمس الدين الدمشقي الحنبلي وهو من مستوطنيها منذ سنين ولهُ بها اولاد وهو فقيه هذا السلطان وخطيبهُ ومسموع الكلام عندهُ ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية فاعلمنا ان السلطان قد جاء لزيارتنا فشكرتهُ على فعلهِ واستقبلتُ السلطان فسلمتُ عليهِ وجلس فسألني عن حالي وعن مقدمي وعمَّن لقيتهُ من السلاطين فاخبرتهُ بذلك كلهِ واقام ساعةً ثم انصرف وبعث بذابة مسرجة وكسوة . وانصرفنا الى مدينة برلو وهي مدينة صغيرة على تل تحتها خندق ولها قلعة باعلى شاهق نزلنا منها بمدرسة فيها حسنة وكان الحاج الذي سافر معنا (وهو الذي كان يترجم لابن بطوطة) يعرف مدرّسها وطلبتها ويحضر معهم الدرس وهو على علاتهِ من الطلبة حنفي المذهب ودعانا امير هذه البلدة وهو علي بك ابن السلطان المكرم سليمان بادشاه ملك قصطمونية وسنذكرهُ فصمدنا اليهِ الى القلعة فسلمنا عليهِ فرحَّب بنا واكرمنا وسألني عن اسفاري وحالي فاجبتهُ عن ذلك واجلسني الى جانبهِ وحضر قاضيهِ وكاتبهُ الحاج علاء الدين محمد وهو من كبار الكتَّاب وحضر الطعام فاكلنا ثم قرأ القراء باصوات مبكية والحان عجيبة وانصرفنا وسافرنا بالغد الى مدينة قصطمونية وهي من اعظم المدن واحسنها كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار

ثم ذكر سلطانها فقال

هو السلطان المكرم سليمان بادشاه وهو كبير السن يناهز على سبعين سنة حسن الوجه طويل اللحية صاحب وقار وهيبة يجالسُ الفقهاء والعلماء دخلت عليهِ فاجلسني الى جانبهِ وسألني عن حالي ومقدمي وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام فاجبتهُ وامر بانزالي على قرب منهُ واعطاني ذلك اليوم فرساً عتيقاً قرطامي اللون وكسوة وعيَّن لي نفقةً وعلفاً وامر لي بعد ذلك بقمح وشعير

وسافر من هناك بحراً قاصداً بلاد القرم ودخل مدناً كثيرة من مدن الترك وقال انهُ

رأى في قيسارية مدينة الماجر يهودياً سلَّم عليهِ بالعربي فسألهُ عن بلادهِ فذكر انهُ من بلاد الاندلس وانهُ اتى على طريق القسطنطينيَّة العظمى وبلاد الروم وبلاد الجركس وذكر ان عهدهُ بالاندلس منذ اربعة اشهر

ثم قال ورأيت بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم وهنَّ اعلى شأناً من الرجال. فاما نساء الامراء فكانت اول رؤيتي لهنَّ عند خروجي من القرم رؤية الخاتون زوجة الامير سلطية في عربة لها وكلها مجللة بالملف الازرق الطيب وطيقان البيت مفتوحة وبين يديها اربع جواري فائقات الحسن بديعات اللباس وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها ولما قربتْ من منزل الامير نزلتْ عن العربة الى الارض ونزل معها نحو ثلاثين من الجواري يرفعنَ اذيالها ولاثوابها عرّى تأخذ كل جارية بعروة ويرفعنَ الاذيال عن الارض من كل جانب ومشت كذلك متجترة فلما وصلت الى الامير قام اليها وسلم عليها واجلسها الى جانبهِ ودار بها جواريها وعلى هذا الترتيب نساء الامراء واما نساء الباشا والسوقة فرأيتهنَّ واحداهنَّ تكون في العربة والخيل تجرها وبين يديها الثلاث والاربع من الجواري يرفعنَ اذيالها وفوق رأسها اليفطاق وهو اقروف مرصع بالجوهر وفي اعلاهُ ريش الطواويس وتكون طيقان البيت مفتحة وهي بادية الوجه لان نساء الاتراك لا يحتجبنَ. وتأتي احداهنَّ على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالقنم واللبن فتبيعهُ وربما كان مع المرأة منهنَّ زوجها فيظنهُ من يراهُ بعض خدامها

ثم ذكر سلطان تلك البلاد وقال ان اسمهُ محمد اوزبك خان ومعنى خان عندهم السلطان. وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشان رفيع المكان قاهر لاعداء الله اهل قسطنطينية العظمى مجتهد في جهادهم وبلادهُ متسعة ومدنهُ كثيرة منها الكفه والقرم والماجر وازاق وسرداق وخوارزم وحاضرتهُ امرا وهو احد الملوك السبعة الذين هم كبراء ملوك الدنيا وعظماؤها وهم مولانا امير المؤمنين ظل الله في ارضهِ امام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق الى قيام الساعة ايد الله امرهُ واعز نصرهُ وسلطان مصر والشام وسلطان العراق والسلطان اوزبك هذا وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر وسلطان الهند وسلطان الصين

ومن عادة هذا السلطان ان يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب مزينة بديعة وهي من قضبان خشب مكسو بصفائح الذهب في وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة وقوائمهُ فضة خالصة ورؤوسها مرصعة بالجواهر ويقعد السلطان على

السرير وعلى يمينه الخاتون طيطغلي وتليها الخاتون كيوك وعلى يساره الخاتون بيلون وتليها الخاتون اردجي ويقف اسفل السرير عن اليمين ولد السلطان تين بك وعن الشمال ولده الثاني جان بك وتجلس بين يديه ابنته ابت كجك واذا اتت احدى نسائه قام لها السلطان واخذ بيدها حتى تصعد على السرير واما طيطغلي وهي الملكة واحظاهن عنده فانه يستقبلها الى باب القبة فيسلم عليها ويأخذ بيدها فاذا صعدت على السرير وجلست حينئذٍ يجلس السلطان وهذا كله على اعين الناس دون احتجاب ويأتي بعد ذلك كبار الامراء فتنصب لهم كراسيهم على اليمين والشمال "

ووصف هؤلاء الزوجات واحدة واحدة وقال في وصف الثالثة واسمها بيلون انها بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور وانه زارها فرآها قاعدة على سرير مرصع وبين يديها نحو مئة جارية روميات وتركيات ونوبيات والحجاب بين يديها من رجال الروم فسألت عن حاله ومقدمه وبعد وطئه وامرت بالطعام فحضر وأكل بين يديها. قال "ولما اردنا الانصراف قالت لا تنقطعوا عنا وترددوا الينا وطالعونا بحوائجكم واظهرت مكارم الاخلاق وبعثت في اثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها ومع هذه الخاتون كان سفري الى القسطنطينية العظمى كما نذكره بعد "

وكان سفر ابن بطوطة الى بلاد الترك وبلاد الروم سنة ٧٣٢ للهجرة او سنة ١٣٣١ للبلاد اي في السنة السادسة من ولاية السلطان ارخان فما رآه بعينه ووصفه في رحلته يصح الاعتماد عليه كاصدق وصف لتلك البلاد وسكانها في ذلك الحين وقد قال "ان بلاد الروم احسن اقاليم الدنيا وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن في البلاد فاهله اجمل الناس صورًا وانظفهم ملابس واطيبهم مطاعم واكثر خلق الله شفقة ولذلك يقال البركة في الشام والشفقة في الروم وانما عني به اهل هذه البلاد وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية او دارًا يتفقد احوالنا جيراننا من الرجال والنساء وهن لا يحتجبن فاذا سافرنا عنهم ودعونا كانهم اقاربنا واهلنا وترى النساء باكيات لفراقنا ومن عادتهم في تلك البلاد ان يخبزوا الخبز في يوم واحد من الجمعة يعدون فيه ما يقوتهم سائرها فكان رجالهم يأتون الينا بالخبز الحار في يوم خبزه ومعه الادام الطيب اطرافًا لنا بذلك ويقولون لنا ان النساء يعتذرن هذا اليكم وهن يطلبن منكم الدعاء. وجميع اهل هذه البلاد على مذهب الامام ابي حنيفة رضي الله عنه "

وواضح مما تقدم ان الاتفاق كان تامًّا بين الروم الذين بقوا على النصرانية والروم الذين

دانوا بالاسلام والاتراك الذين نزلوا بلادهم يساكن بعضهم بعضاً ويتزوج بعضهم من بعض لا يفرق الدين بينهم وان العادات الرومية كانت متغلبة الى ذلك العهد فيجلس السلطان على عرشهِ وتجلس زوجتهُ معهُ كما يفعل ملوك اوربا الآن وقد رأى ابن بطوطه ذلك بعينهِ واستغربهُ نخصهُ بالذكر ولكنهُ لم يستخر بهِ مع انهُ كان شديد التقطع كما يظهر من تحقيرهِ المسيحيين بالكفار وباعداء الله

وواضح ايضاً مما تقدم ان السلطان ارخان كان حينئذٍ اميراً من امراء تلك البلاد وليس من اعظمهم لكنهُ عمّر طويلاً فانهُ توفي سنة ١٣٦٠ للميلاد اي بعد نحو ثلاثين سنة من مشاهدة ابن بطوطة لهُ فلا يبعد ان يكون قد فتح بلاداً كثيرة واتسعت مملكتهُ في زمانهِ . وسنأتي على ذكر من خلفهُ من سلاطين آل عثمان واحداً واحداً ونتوخى ذكر ما قالهُ عنهم المؤرخون المعاصرون لم ونقتصر على الامور الكلية

البلغار

حدث في الشهر الماضي ان بلاد البلغار اعلنت استقلالها عن الممالك العثمانية وقد كانت امارة مستقلة في ادارتها ليس للدولة العلية عليها الاَّ السيادة الاسمية . والظاهر انها كانت تطمع في توسيع تخومها فلما رأت ان الشعب العثماني استيقظ ولم يعد في الامكان ان يُنال منهُ شيء اكتفت بما لها واعلنت استقلالها لتضع حدًّا بينها وبين سائر البلاد العثمانية

وبلاد البلغار بين نهر الدنيوب وجبال البلقان مساحتها ٢٤٦٩٩ ميلاً مربعاً ومساحة الروملي الشرقية المضافة اليها ١٣٨٦١ ميلاً وكان عدد سكانهما منذ ثلاث سنوات اربعة ملايين و٣٦ الفاً ثلاثة ارباعهم من الروم الارثوذكس والخمس من المسلمين والباقون من الكاثوليك واليهود . وعاصمتها مدينة صوفية سكانها ٨٢٦٢١ نفساً . وقد قدِّر دخل الحكومة هذا العام ١٢٧٢٣٥٧٠٠ فرنكاً ونفقاتها كذلك وتبلغ قيمة صادراتها نحو ١١٥ مليون فرنك وقيمة وارداتها نحو ١٠٨ ملايين فرنك

وكان فيها منذ سنتين ٤٥٨٤ مدرسة ابتدائية فيها من التلامذة مئتان وخمسون الفاً من الصبيان ومئة وخمسون الفاً من البنات وفيها عدا ذلك ٣٨٥ مدرسة عالية تحوي نحو ٣٧ الفاً من الذكور ونحو ١٧ الفاً من الاناث والتعليم فيها الزامي بين السنة السادسة والثانية عشرة ثم يصير حرًّا . ويظهر لنا مما نرأهُ عنها ومما سمعناهُ من بعض رجالها الذين التقينا